البعد الاجتماعي للزوايا

عطية شطة باحث في الزوايا.

إن استدعاء التصوف وأهله و من خلاله طرق التربية الروحية و زواياها العاملة غير الخاملة قد أصبح ضرورة ملحة لأهل زماننا أكثر من أي وقت مضى ، علاجا لأمراض نفوسهم فرادى أو مجتمعات يضيق المجال لحصرها ، فلا يتركون للدنيا وملذاتها ولا يعزفون عنها ، و لا للتشرذم الذي فتك بالمجتمعات الحديثة ، إذ الصوفي الحق هو من يجمع الدنيا بمشروعية لخدمة الدين و تتسم حياته بالتلاحم و التعاون ، لأن الدنيا أصلا هي مطية الآخرة إلا أنها تكون في يده لا في قلبه حسب ابن عجيبة ، و هو يعلم أن **المؤمن القوي خير و أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير** كما في الحديث الشريف .[01]

كما أن عزوف الناس على الغاية التي كانت سبب خلقهم وهي عبادة الله تعالى والتمكين لدينه بالشكل الذي ارتضاه لهم باعتدال و وسطية بين تحقيق هذه الغاية وما يكفل لهم عيشة هنيئة لا يمكن أن تتأتى لهم إلا بما رسمه الأولون من الأخيار الذين قعدوا للتصوف ففازوا بحق في الدارين .

إن حاجة المجتمع الإنساني إلى ضابط ينظم حياته ويقهر نفس الفرد فيه منذ أن خلقه الله تعالى وحتى في ظل النواميس السماوية التي تجسدها الرسالات وفي وجود قوانين وضعية في الدولة الرسمية التي اجتهدت في وضع دساتير لتنظيم حياة الأفراد جعل تشريعات هذه الأخيرة تعجز عن الوصول إلى تلك الغاية الخفية المتمثلة في ملء ذلك الفراغ الروحي المخيف و درء ذلك التنافر الاجتماعي، ليأتي المدد من توجه هو في الواقع من صميم الدين الإسلامي بل كان قد لازم كل الديانات ، إنه **التصوف** تلك المدرسة الروحية التي عجز الكتاب عن تعريفها والقارئون عن إدراكها لأن مفهومها ببساطة لا ينال إلا بالذوق ، مجسدا في زواياه العاملة .

فإذا كانت عملية البناء هذه عملية متواصلة فإن التجانس في المجتمع بين مختلف الأنساق ضرورة لامناص منها ، وإذا اختل منها نسق أو تراجع فإنه يعوض آليا ، حيث ثبت بالتجربة وفي الواقع المعيش أن المجتمع يستنجد بنسق قديم ، فإن تراجع عن تلبية حاجيات الأفراد لا سيما في الجانب الروحي فسوف يتم تعويضه بالعودة إلى الزاوية والقبيلة ، و سأحاول التدليل على عظيم دور للزوايا التي كما أنها قد جوبهت بشيء من الرفض من قبل الإصلاحيين

فإنها كانت ولا تزال آخر معاقل الثقة والاستنجاد من طرف المجتمع عند اختلال أحد أنساقه ، و إذ لا يشكل المعتقد ذو الأصول الشرعية وحده مفهوم التدين بل تدخل معه كذلك مجموع الطقوس والعادات وهو ما افترض على السوسيولوجيا تناولها مجتمعة للوصول إلى دور الزوايا و منتسبيها في المجتمع وأثرهم عليه ومدى حملهم لإيديولوجيته في التصوف ومدى تميزهم عن العامة.[02]

ومن أهم بواعث هذا المقال هو الفراغ الروحي والنزعة الفردية الناجمة عن غلبة المادة والتكنولوجيا والتصنيع على حياة الإنسان ومحاولة سد ذلك الفراغ الروحي وحيث ما وجدت المدنية civisme قل التدين ومن ثم ظهر التفكك الاجتماعي ، و هو ما سنقف عنده بإيجاز في البعد الروحي للزاوية .

كذلك فإن التصوف يجب أن ندرسه من الداخل أي أن يتذوق الباحث – أو يحاول – ما يجده الصوفي من مواجيد لكي لا يظلم مجتمعا أو فئة منه دون الإخلال بواجب التجرد من الذاتية .

ومما سبق يتبين أنه قد عصفت التحولات الحضارية الجديدة . و قد اجتاحت العالم كله . بالمجتمع لإسلامي فأفقرت ذاته المبدعة و أضمرت عبقريته الفياضة و لم تعطه من ثمرات المدنية الحديثة ما يعوض خسارته ، و هيهات ما دام الكثير من الناس اليوم يعرف عن الزوايا ما لم يكن منتشرا عنها في السابق نتيجة استقطابها للأضواء وكثرة تناولها بالبحث والدراسة ، فإن غايتي لا تتوقف عند التعريف بالزوايا وأهدافها ولا بالتصوف ورجالاته بل تتعداه إلى الغاية من هذه المؤسسات الفاعلة والضاربة في عمق التاريخ الاسلامي والتي تستمد مشروعيتها من الدين – الكتاب والسنة – و الظواهر الدينية عموما من جهة ، كما أن هدفي من المقال يتمثل في مدى قدرة الزوايا على الاستمرارية و أن ذلك دليل قاطع على قيامها على أسس سليمة من جهة أخرى .

و إذا كان لكل طائفة منهجها في الحياة بما تمليه عليها قناعاتها التي لا تخرج عن تأصيل شرعي فإن السادة الصوفية لهم منهجهم كذلك ، فالصوفي مسلم عادي يمارس أعماله كغيره من إخوانه إلا أن عليه مسحة كصوفية من الذوق حتى في تصرفاته – لأن الكلام في رقائق التصوف ليس ببدعة ، تتأرجح أفكاره وتصرفاته بين الشريعة والحقيقة ، يقول الشافعي :

فقيها وصوفيا فكن ليس واحدا *** فإني وحق الله إياك أنصح

فذاك قاس لم يذق قلبه تقى *** وهذا جهول كيف ذو الجهل يصلح

و إنما يتضح الأمر في كون المجتمع الصوفي متميزا عن غيره في المحبة و الوئام ن ذلك أن المنهج الصوفي يبنى على الذوق والمجاهدة و الزهد في ما في أيدي الخلائق ، وقطع العلائق التي تصرف العبد عن غايته السامية وهي معرفة الله الحقة ، و هذا المنهج هو وحده الكفيل بأخذنا إلى السعادة المثلى .

و مما لاشك فيه أن تاريخ الأمم يقاس بمدى التأريخ لقيمها وتقاليدها و غوص الباحثين لا سيما من أبنائها في تركيبتها الاجتماعية و مدى رسوخ قيمها وأصالتها وصفاء منبعها ليكشفوا بذلك مقومات وبواعث عزها ومؤشرات انحطاطها، ومكانة هذه الأمة بين الأمم ومدى تعاطيها مع عواصف التغيير الذي ليست أية أمة بمنآى عنه .

هذا، وقد لعبت الزوايا دورا محوريا في حياة المجتمع الاسلامي الوسيط والحديث عامة والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص، ذلك أنها مافتئت تعتبر قلاعا للذود عن قيم المجتمع ومقوماته وتراثه لا سيما بالنسبة للحفاظ على الدين واللغة منذ بروز الزوايا كمؤسسات دينية واجتماعية محورية في المجتمع الجزائري و حتى أيامنا هذه بتصديها للظواهر الغريبة الدخيلة على المجتمع ، ولا ينكر دور الزوايا في هذا الإطار إلا جاحد ، و لا أدل على ذلك من دورها الريادي قبل الاستعمار وأثناءه بتبنيها لمنظومة اجتماعية قاما مقام الدولة الرسمية لا سيما في التكافل الاجتماعي.

أما بعد الاستقلال فإن الدور التكاملي – غير الموازي – للزوايا داخل المجتمع الجزائري خاصة اجتماعيا جعلها أهم روافد البنية الاجتماعية للدولة الجزائرية، حيث سنقف على دور شيوخ الزوايا في هذا الإطار، ذلك أن الدين يعتبر ركيزة محورية في حياة الإنسان منذ نشأته وباعتبار هذا الإنسان اجتماعيا بالطبع كما يقول **الإمام الشيرازي** :

لازال الدين وسيبقى عاملا يحكم تلك التفاعلات الاجتماعية للإنسان باعتباره موجها لها بل وملهما للفرد في كافة حركاته وسكناته، إلا انه لا يخفى على عاقل أن ذلك الانقياد إنما يختلف بحسب الالتزام بهذا الدين وبتعاليمه وبمدى الارتباط بمؤسساته المكرسة لتعاليمه ومنها المسجد والزاوية والكتاب وغيرها .[03]

كما أن الدين الاسلامي يمتاز بالنظرة الثاقبة في علاج النفوس و المجتمعات و أنه يملك علاج الروح بتأكيده على نكران الذات لأتباعه. [04]

لكن و ككل نسق اجتماعي فقد تأرجحت الزوايا بين البريق و الأفول وبين الريادة والتراجع تتأرجح بين ذا وذاك وتبعا للمكانة التي يوليها لها المجتمع بل تبعا للمكانة التي تتبوؤها هي ذاتها تبعا لعدة عوامل داخلية – بحسب البنية الهيكلية وشخصية الشيخ وطريقة تعامله مع مريديه ومتابعة حياتهم الاجتماعية – وأخرى خارجية – ناتجة عن النسق الاجتماعي المحيط بها بل قد تتأثر حتى بالظروف السياسية وما يوليه الحاكم لها من عناية معنوية ومادية

كما نراه حاليا، وبذلك يزداد تأثيرها على الأفراد ومكانتها في المجتمع ، كما لا ننكر أن الوضع السياسي وما صحبه من واقع أمني مرير وما اعتراه من اختلاف إيديولوجي مع الزوايا قد ساهم فعلا في تراجعها وإحجام الأتباع و المريدين عن ارتيادها وبالتالي في أفول دورها التربوي و الاجتماعي عامة في الفترة السابقة .

إن ما سبق من أحكام ينسحب على كامل مناطق البلاد وليست أية جهة بمنآى عن الأحداث نظرا لتشابه واقعها الاجتماعي وامتداداتها التاريخية ومشربها الروحي المشترك بل لاشتراكها حتى في الظروف والتقاليد الاجتماعية مما سيكون له لا محالة دور بالغ الأثر في أثرها على حياة الأفراد .

إن الإنسان مهما بلغت موضوعيته فهو كائن اجتماعي تاريخي و رغم قدرته على تجاوز ذلك ، إلا أن خطابات أخرى تتحكم فيه وتمارس عليه من الداخل دور الرقيب و المسيطر ، و لن تجد غير الزوايا إلى ذلك سبيلا .[05]

هذا التصوف – بزواياه – الذي أسيء فهمه تارة وعجز المنتسبون إليه عن تعريفه لغيرهم تارة أخرى ، والذي كادت الزوايا أن تكون لها حصرية تمثيله في حياة المسلمين لما لها من وثيق الارتباط بيومياتهم ، فللسادة الصوفية منهجهم في التربية على ثلاث مراحل **التخلية** من الأغيار وكل عيب ورذيلة ، ثم **التحلية** بالفضائل والأخلاق ، ثم مرحلة **الشهود والثبات** في حضرة الله تعالى ، و على السالك طريقهم أن يتقيد بهذه المراحل ، قال الجنيد : التصوف تصفية القلب من موافقة البرية وإخماد الصفات البشرية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية والوفاء بعهد الله على الحقيقة و اتباع النبي صلى الله عليه وسلم على الشريعة.[06]

وما دام الإسلام ظاهر وباطن فلا غلبة لشق على الآخر ومن قصد الله بأحدهما ضل لا محالة والصوفي الواصل هو من وفق بين قطبي **ثنائية الشريعة / الحقيقة** .[07]

وتجدر الإشارة إلى حدة هذا الخلاف من لدن مناوئي التصوف نظرا للغلاة من الطرفين ، في حين يبقى التصوف الحقيقي هو حامل لواء **الوسطية** التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه من بعده والتابعون ، حيث يرى أبو حامد الغزالي أن هناك أمورا قد تخفى عن العقل البشري فلا يدركها مهما بلغت حدته هو ذلك العظيم المطلق الذي جاوز حدود الإدراك و الإحاطة في التصور .[08]

وفي هذا الإطار فإن شيوخ الزوايا يدعون أنهم يمثلون الدين بامتياز كما أن القائمين على الحركات الاسلامية ومن ورائهم الأحزاب يدعون نفس الادعاء مما خلق سجالا ارتأيت أن أنئى عنه مكتفيا بالإشارة إليه .

و قد تبين لي أن تأثير الزوايا على المجتمع عموما وعلى منتسبيها على وجه الخصوص إنما يتغير بحسب

الحقبات التاريخية وبحسب شخصية الشيوخ القائمين عليها وقد يتحقق هذا في الزاوية الواحدة ، وينعكس ذلك جليا على عدد مرتاديها وعلى عدد الطلبة الدارسين فيها بشكل مباشر.

كما قد نسجل أن ظهور الزوايا واستقطابها للرأي العام من وساءل إعلام وباحثين ومن وراء ذلك كله السلطة التي راحت تنظم ملتقيات و أياما دراسية دافعة بها إلى الأمام بحسن نية حينا لما رأته فيها من إصلاح لما فسد من المجتمع وأحايين أخرى ضربا بها على أيدي المناوئين لها من حركات إسلامية تتقاطع معها الزوايا في أسلمة المجتمع وتتوازى معها في الطريقة و المذهب و الآجال.

وفي ما يسمى بالاعتماد المتبادل **the interdepandance** بين السلطة والزوايا فقد كانت و لا تزال في أكثر من مناسبة الملاذ الفعال لضرب المناوءين من الحركات الإسلامية في أكثر من بلد عربي لا سيما في الحراكات الأخيرة.

ولقد رأينا عبر التاريخ الاسلامي الحديث كيف يجتهد كل طرف للأسف في إبعاد الآخر عن مشهد الفاعلين أو القضاء عليه من الأساس ، بدءا من الحركة الوهابية بداية القرن الماضي مرورا إلى ما حدث في بلاد المغرب العربي ومنها الجزائر وآخرها ليبيا ومالي اللتين تم تخريب العديد من الأضرحة بصفتها شواهد على التصوف وزواياه ، مع كل أسف .

كما ابتعد بعض شيوخ الزوايا عن غاية الشيخ المؤسس من وسطية واعتدال بذهابهم مذهبا احتداميا لا سيما مع الشباب المنتسبين لهذه الحركات الاسلامية و بذلك ازداد الشرخ في المجتمع على عكس ما ابتغاه الأولون من هذه الأمة من وحدة و وئام بين طوائف الأمة الاسلامية ببسط المحبة للجميع دون الوقوع في **فخ التميز** وشراكه ، وهي غاية التصوف السامية المتمثلة في المحبوب الواحد جل وعلا دون سواه.

وقد تكون بعض الأزمات على طرف نعمة على الطرف الآخر فانحراف بعض الحركات الاسلامية عن وسطية الاسلام أدى بظهور الزوايا التي أفل نجمها من قبل ، كما تشجع البعض على إنشاء زوايا هنا وهناك سواء للعلم أو للذكر أو للتقرب من السلطة **فالناس على دين ملوكهم** ، إلا أنه **ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.**

ذلك أن تراكبية الأنساق الاجتماعية تقتضي تعويض النسق الآفل والذي ليس في الغالب سوى مكملا له ، فغياب التضامن الرسمي بغياب الدولة خلال الاستعمار أدى إلى ظهور الزوايا بقوة في المجتمع الجزائري ، و أخص

بالذكر هنا مجموع الزوايا على اختلاقها سوتء زوايا العلو أو زوايا الذكر أو زوايا البركو المبنية على ضريح.

إذ تعتبر هذه الزاوايا بحق صاحبة الفضل على مواطني أغلب المدن و الأرياف المحيطة بها في بسط التكافل الاجتماعي [09].

إن الزوايا باعتبارها **دولة داخل دولة** بمثابة حكومات متعددة الأدوار هي رمز للإيمان تمثل فكرة الوطن الغائبة و قد غطت الفراغين الروحي و الاجتماعي في العالم الاسلامي على حد سواء و ذلك على فترات انطلقت من اسطنبول في العهد العثماني وقبله من بغداد والقاهرة ودمشق والأندلس وكانت قبل ذلك وفي كل مرة تتغذى من مكة والمدينة استقت هذا الدور الاجتماعي من معلم البشرية الأول صلى الله عليه وسلم وكيف آخى بين المهاجرين و الأنصار ، فجاءت الزوايا لحماية الدين وإحياء الخلافة الاسلامية ومناهضة الاستعمار الأوروبي الصليبي.

و لقد شكلت الزوايا في الجزائر كما في العالم الإسلامي خطرا عل فرنسا الاستعمارية ووجودها في شمال إفريقيا مما جعل حنكتها تسارع بها إلى تدجين بعض مقاديما لا سيما بالجنوب الذين لولاهم لما دخلت الصحراء ، وتبعدها عن دورها الاجتماعي [10] .

وكانت حالة الجمود ودور بعض الزوايا في الركون بأتباعها إلى الانعزال عن الواقع الاجتماعي وتقرب بعض شيوخها من الإدارة الاستعمارية سببا كافيا لمحاربة حركة الإصلاح بزعامة الشيخ ابن باديس لهذه الطرق . [11]

في سوء تفاهم بادىء الأمر بين شيوخ الزوايا والإصلاحيين بإذكاء من المستعمر، في حين لم يقتصر عمل الطرق على الزهد بل تعداه إلى نشر الإسلام وتعليم أتباعها صنوف الذكر والتحرر من الاستعمار الذي عانى بعيد دخوله الجزائر من شيوخ هاته الطرق و مقاديمها و أتباعهم . [12]

ولقد توالت حركت المرابطين في الانتشار و انتشرت الزوايا بغرض العلم والعبادة وإطعام الطعام ، حيث مرت الطرق الصوفية بالجزائر بمرحلة النشأة والظهور ونشر الفكر الصوفي بين المريدين وبناء الزوايا ثم السعي للحفاظ على اللغة العربية و التراث الاسلامي وتعليم الشرع للأتباع ، وقد بلغ عدد الزوايا 350 زاوية مع 285000 مريد تقوم في الغالب بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العقيدة والفقه ، فكان ما كان لهذه المدارس الروحية والعلمية ذات البعد الاجتماعي من أثر على شخصية المجتمع الجزائري وتهيئته للثورة ضد الاستعمار . [13]

ولقد فاقت هذه الزوايا نظيراتها في العالمين العربي و الاسلامي في لعب دور التنوير والدعوة إلا أنها لم تواكب الحركة الفكرية لا سيما في القرنين 18 و 19 م لقيام الاستعمار بغلق كل بوادر النهضة العلمية في وجه شيوخها رغم

كونها لاحقا معاقل للثورة ضد الاستعمار.[14]

و بالنظر لسعي القائمين على الزوايا إلى ربطها بماضيها المشرق وإحياء بريقها الآفل فلا مناص من إقامة مدارس قرآنية على أنقاضها ضمانا لاستمراريتها وحفاظا على ما تبقى من بنيتها ومواصلة لمسيرتها الهادفة ، حتى أن البعض راح يستغل موروث بعض الزوايا لإنشاء مدارس قرآنية وهو يعلم علم اليقين إقبال المجتمع عليها لما للدين من سلطان روحي على أفراده .

و إضافة إلى استنجاد السلطة بالزوايا سياسيا اليوم فإن ميولها هذا له باعث اقتصادي كون النظام الاقتصادي للزوايا ليبرالي بامتياز ، كانت الزاوية تسير أملاكا موقوفة عليها من بساتين ودكاكين ونفقات ومصاريف فحوربت يوما باسم الاشتراكية لاسيما بعد الاستقلال حيث عملت الدولة الوطنية على تهميش الزوايا نتيجة الخيار الاشتراكي الذي عارضه شيوخ الزوايا، فاتهمتها السلطة ، كما تم تغييب البعد الصوفي للهوية الجزائرية، وتراث الطرق الصوفية من برامج التعليم ومؤسسات الإعلام والتنشئة الاجتماعية، إضافة إلى تشويه صورة التصوّف في البرامج والأبحاث الجامعية في السابق ، مما جعل الزوايا تنجح في رعاية المجتمع و التكفل بمختلف فئاته .[15]

ومع مجيء الرئيس بوتفليقة إلى السلطة ، انفتح المجال أمامهم، حيث أصبحت لهم حرية العمل في إطار القوانين السارية في البلد الجزائريين، و حيث أن الزوايا نشأت نشأة تربوية إلا أنها تطورت تماشيا مع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المحيطة بها في محاولة لضمان استمراريتها بما يجعلها تحضى بالقبول من لدن أوسع فئة من المجتمع ، وإذا كان دور الدين يتمثل في مراقبة أفراد المجتمع فقد كان للسلطة عديد المحاولات في الاستنجاد بمؤسساته التي يمثلها المسجد والزاوية بامتياز لأن للدين والسلطة معا تأثيرا على أبسط تحركاتنا ، كما أشار إلى ذلك عالم الاجتماع جورج لاباسيد .[16]

الجدير بالذكر أنه، رغم أن شيوخ الزوايا نادرا ما يقبلون التعامل مع قادة الأحزاب، إلا أن الحركات الإسلامية و قادة بعض الأحزاب – حتى الاسلامية منها –حاولوا مغازلة شيوخ الزوايا للحصول على الثقل الشعبي، للحصول على بركة الزاوية ، لكن اعتمد معظم الشيوخ مقولة " أهلا بك للضيافة ، لكن ممنوع عليك الحديث في السياسة".

هذا ، و نسجل نشأة بعض الأحزاب و الجمعيات وكذا بعض المدارس التعليمية على أنقاض الزوايا وما رسخته من قيم الشرف والبركة وتنظيم سلوكات المجتمع بخضوع المريد للشيخ لما للزوايا من بالغ أثر وقوة حضور في المجتمع في شبه بوتقة للمقدس – الدين – بعلمه الباطن و شريعته النقلية الظاهرة من جهة ، و المدنس المتمثل في مجمل علائق الدنيا التي يحاربها المتصوفة عبر العصور ويدعي منتسبوا الزوايا ذلك بامتياز ، حيث أنه ليس من محض الصدفة أن

يؤسس الصلاح زواياهم و الإصلاحيون حركاتهم و أحزابهم لأن المسألة لها بواعث إيديولوجية و سوسيو لوجية عميقة ، معتمدا على الانتربولوجيا ودراسة المقدس و – تأصيل التصوف شرعا – والمدنس المتمثل في واقع المجتمعات العربية . [17]

وتماشيا مع هذا التجاذب فقد تم بعد التسعينات رد الاعتبار للزوايا ، و رفع الحظر السياسي على نشاطاتها، فظهرت **الجمعية الوطنية للزوايا** في 1991 . 1992 ليظهر بعد ذلك **الاتحاد الوطني للزوايا** في 2003 الذي كان له الدور الحاسم في عديد المناسبات السياسية ، وفق دراسة نشرتها مجلة لكسبرس الفرنسية في 2008 التي أقرت أن الزوايا في الجزائر أكثر تأثيرا من بعض دواليب السلطة الفاعلة ، وكما يقول علي مراد الباحث الجزائري بأن **الزوايا دولة داخل دولة.**

كما يمتد تأثير هذه الطرق إلى خارج الجزائر، حيث يشكل نفوذها وعاء مهما بإمكان الجزائر أن تستغله مستقبلا حتى دبلوماسيا، فالطريقة التيجانية وحدها لديها أكثر من500 مليون تابع في الخارج أغلبهم في إفريقيا، ينضوي تحتها أغلب الزعماء الأفارقة، كما أن أتباع السنوسية في إفريقيا، وآسيا يقدّرون بأزيد من 200 مليون، بينما امتد تأثير العلوية إلى أوروبا، حيث استقبل شيخها خالد بن تونس من قبل بابا الفاتيكان، والرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك، وقد كان شيخها أحد الأطراف الفاعلة في مجابهة المد الوهابي.

فالنجاح كل النجاح للمنظومة التعليمية لا سيما التقليدية والتي تمثلها بامتياز الزوايا العلمية والمدارس القرآنية الناجحة هي السياج المنيع الذي لن ينجح إلا إذا مددنا هذا السياج لصيانة كافة الأنسجة الاجتماعية والثقافية ذات الصلة والتي ترتبط بها عضويا .

و حقيقة بالرجوع إلى ذكر الزوايا وطبيعتها لا سيما البدوية منها أو في الأرياف التي ما رأيت لها مثيلا سوى ببلاد شنقيط وبالنظر إلى خريجيها من الطلبة ومريديها من الأخوان من أعراش المنطقة ، فإنه لا أمل إلا في الحفاظ على البقية الباقية من البادية وأهلها حتى يرعوا عهدها حق رعايتها مع أن الأمل في ذلك ضئيل ، لأن مدار التشاؤم هو حفاظ البادية وزواياها على نمط سير دون مواكبة المنظومة في الحواضر. [18]

فإذا أرادت الزاوية ضمان استمراريتها فإنه عليها مسايرة ما استجد في الحياة الاجتماعية ، ذلك أن التصوف الاسلامي يجسد معاني في التعامل مع الآخر غاية في المثالية على عكس التصوف في الديانات الأخرى لأن التصوف الاسلامي خير باعث على الوسطية المعتدلة التي ينشدها كل مسلم عاقل ، كما أن وظيفة إصلاح المجتمع التي يدعو إليها التصوف إنما هي غاية كل مسلم عاقل لما له من قوة تأثير روحي على أفراده ، و لقد وقفنا على تأثير الشيخ على المريد في عديد المناسبات وكيف ينقاد له وفق علاقة لا نظير لها في أي تنظيم آخر ، فالتصوف وحده مظنة

للصفاء فبه تحارب الرذيلة وتنبذ الكراهية و العنف وحب الذات ، ولا يخالفني أحد في كونها المبادىء الأساسية للتصوف الاسلامي ، مما يجعله أداة المشروع النهضوي الحضاري المنشود للأمة والوسيلة الفعالة في يد كل سلطة تسعى إلى ذلك ، إلا أن شرط تقيد أتباعه بالمنقول من التعاليم الاسلامية و ضرورة بعده من الرهبنة و ما ألصق به عبر التاريخ من أوهام و طلاسم سيجعل الاسلام في نظري أكثر قبولا لدى الآخر .

فعلى الزوايا إن أرادت القبول من الجميع لا سيما الشباب الحالي أن تساهم في نشر التصوف بصفته قبل كل شيء باعثا على التوحيد نابذا لكل مظاهر الشرك و مقيد لأتباعه بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان عليه أصحابه رضوان الله تعالى عنهم ولا ضرو في إتباع ما قعد له الأولون من جهابذة التصوف من غير الغلاة ، كما أنه شاحذ للهمم في كل أزمة ، فقد كانت مقاومة المستعمر الصليبي على أيدي كبار شيوخ الزوايا بل كادت تقتصر عليهم مهمة الحفاظ على الهوية في ظل غياب الدولة الرسمية .

ومن أنكر الدور الإصلاحي التربوي للتصوف من خلال الزوايا إنما هو منكر للعقل لأن جميع المنظومات التربوية وكافة دساتير العالم كدت أن أقول إنها صوفية لاحتوائها على قيم من التسامح ونبذ العنف وحب الغير و انصياع للحاكم ونبذ للجشع بانقطاع المتصوفة عن الدنيا وملذاتها فلا يثقلون السلطة بمطالب ولا يهدفون إلى غايات تتداخل مع غيرهم من باقي أفراد المجتمع ، إنما سلوكهم ورضاهم بما قسم الله لهم هو ما يميزهم عمن سواهم ، ولقد رأينا كيف أن منتسبي الزوايا من طلبة العلم لا يهدفون إلى شهادة وليسوا من طلبة الخبز و الوظيفة كما يقول محمد نسيب في كتابه زوايا العلم والقرآن في الجزائر، كما أن أبناء الزوايا هم أكثر مسؤولية من غيرهم تجاه ربهم ومجتمعهم و حاكمهم لأنهم أكثر التزاما بمبادئ الدين ولأنهم أبعد عن دركات الدنيا وبهرجتها وطموحها الزائف ، فتجدهم الأكثر أمانا والأضمن جوارا و الأسلم مخالطة ، و لأن المسلم الحقيقي لا يتوقف عند تأدية الشعائر والعبادات بل يتوق دوما إلى مقام الإحسان كما جاء في حديث الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولقد جسدت الزوايا مبادئ التصوف بامتياز كونها حامية أفكاره التي نشرتها لطلبتها ومريديها عبر التاريخ الإسلامي ، ولقد رأينا كيف أن المريد يأخذ عهده عن شيخه على هذا الأساس ، وقد أثبت الواقع ذلك بحيث يسهل التمييز بين الطالب أو الموظف الذي درس بالزاوية أو الكتاب وغيره لا سيما في مجال اللغة و الذكاء والحلم

كما تعد الزاوية والكتاب مدرسة مستمرة لا تخضع لنظام زمني أو سن أو شرط بل هي جامعة مفتوحة ، دون أن تتخلى عن صرامتها في ضبط الطلبة في إنجاز واجباتهم وخاصة التكرار لبلوغ الغاية التي من أجلها انتسبوا للزاوية وهاهم قد ارتادوا هذا الحمام العلمي والخلقي ليتطهروا من أدران المدنية وضوضائها.

إن ما أمكنني استخلاصه هو أن للزوايا عموما و منها الزوايا التي تعتمد التعليم أو كما سماها الأستاذ محمد نسيب – زوايا العلم والقرآن – دورا محوريا في المجتمع الجزائري يكمل الدور الذي تلعبه المؤسسات الاجتماعية الأخرى على غرار المدرسة والمسجد ، بل وتعضد حتى هيئات نظامية رسمية كجهاز العدالة .

من ذلك أن مكانة الزوايا عموما بالجزائر لدى المجتمع وفي قلوب الناس لا سيما مريديها جعلتها تحتفظ بهذا البريق المتزايد وهذه المكانة المرموقة طيلة الحقبة السالفة ، تخللتها أحلك فترة استعمارية عرفها التاريخ البشري الحديث ، ورغم ما حدث من هزات عنيفة كادت تعصف بالمجتمع الجزائري ومقوماته وأوشكت على طمس هويته في الزمن الأخير تبعا لما اعتراه من حملة مدروسة لتغريب أبنائه بكل ما أوتي ممن تولوا هذه المهمة منهم من جند وهولا يعلم ولا زال ، فإن الزاوية تبقى القلعة الحصينة لثوابت الأمة وترياق أوبئتها وما أكثرها .

إن مكانة زاوية الشيخ سيدي بولرباح ومقدمها في قلوب الأخوان الذين لاقيناهم هي مكانة احترام وطاعة وتقدير و توقير لما يتميز به هؤلاء من خير وطاعة وورع ، وللأمانة فإننا لم نصادف في من صادفناه من هؤلاء المريدين من يكن منهم ذرة واحدة من العبودية المؤدية للقداسة المطلقة أو للشرك و العياذ بالله مما يؤخذ على بعض المشايخ هنا وهناك ، فدور الشيوخ الاجتماعي وإصلاحهم لواقع الناس وسعيهم الحثيث في ذلك هو الذي بوأهم تلك المكانة الاجتماعية والروحية .

ولقد حضرنا جلسات لإصلاح نزاعات نشبت منها ما يدخل في دائرة الأحوال الشخصية من طلاق وتوابعه ومنها ما يتعلق بخلاف حول قطعة أرض لاسيما العروشية منها حيث يستدعى الطرفان لدى شيخ الزاوية ويحضر الوليمة أهل الرأي الراجح من أعيان وكبار ممن يعرف الحدود ، و يعتبر رأي الجماعة نهائيا في الغالب ليختتم شيخ الزاوية جلسة الصلح بفاتحة يدعو فيها للطرفين بالفلاح والسداد ليتفرقا بعد ذلك وكأن شيئا لم يكن ، كل ذلك في سعي دؤوب وبشكل ملحوظ لشيخ الزاوية من أجل الحفاظ على استمراريتها مجتهدا في جلب المزيد من الطلبة و إكرام حاتمي للضيوف ومحاولة للعب المزيد من الأدوار الاجتماعية لا سيما في فك النزاعات في تسابق مع الزمن للحفاظ على هذه القلعة ذات البعد الروحي و العلمية بامتياز ، وكأن القائمين على هذه الزاوية قد علموا أن البقاء للأصلح من الزوايا خاصة في عصر التقلبات الاجتماعية والشراسة المادية والحملات الإيديولوجية المناوئة للزوايا ومن ورائهم التصوف وأهله .

و لا أتصور أن هيئة أو جهة أخرى كانت لتصل إلى ما وصلت إليه مؤسسة الزاوية من إصلاح القلوب قبل إصلاح النزاع بهذه السهولة ، فتوارث تسيير هذه الزاوية من قبل القائمين عليها من أبناء الشيخ المؤسس يعتبر حفاظا على الموروث الثقافي والاجتماعي للأمة لما تضطلع به الزاوية من رسالة تربوية وروحية و دور اجتماعي أثبتت نتائجها

ميدانيا ، لكن مع كل ما سبق فإن روح التكافل والتضامن لا تخلو منها مناسبة ، ذلك أنه خلال وفود ركب من الأخوان يتضامن الجميع من أجل القيام بشؤونهم لاسيما من أبناء عشيرة الزاوية ، فمنهم من يحط رحال خيمته في محيط الزاوية ومنهم من يتولى ذبح الغنم ومنهم من يبادر إلى إعارة أفرشة و أوان وغيرها ، أما في فصلي الحرث والحصاد فيجتهد الأخوان للتويزة لصالح شيخ الزاوية الذي يكرمهم عند نهاية يوم عمل يطغى عليه طابع الجد والشوق و ذكر الله و رسوله صلى الله عليه وسلم .

إن تنظيم مناسبات الزيارة أو ما يسميه الأخوان **بالزورة** يعتبر بحق فرصة للاحتكاك بباقي الأخوان بما يسمح لشحذ المحبة بينهم ، والترفيه عن النفس بإقامة الولائم التي يكرم فيها الضيوف و آداء القصائد والمدائح التي لا تخرج عن ذكر الله تعالى وتمجيد رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ،كما أن الفائدة الكبرى تتمثل في آداء الصلوات المفروضة جماعة في مسجد الزاوية وذكر المعقبات ومن ثم الفاتحة أي المعروف – الدعاء – و كم يشعر الزائر لمعظم الزوايا على اختلاف مشاربها بنشوة روحية لدى حضوره حلقة الحزب الراتب التي يتلوا فيها الطلبة والزوار القرآن الكريم مع هذه الصفوة وفي هذا الجو الروحي الخاص، قال تعالى: ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا .

والخلاصة هي أن الزوايا عموما هي مؤسسات متكاملة :

– إنسانيا بإكرام الضيوف وعابري السبيل حتى من غير الأخوان على عكس ما هو عليه الحال في بعض الزوايا المغلقة على أتباع طريقتها دون سواهم .

– اجتماعيا بإصلاح ذات البين كما سبق ذكره في أوانه .

– تربويا بتحفيظها للقرآن الكريم وتعليمها لمختلف متون الفقه المالكي وعلوم الشريعة واللغة العربية ، بما يحقق الوحدة المرجعية للأمة .

– روحيا بتلقين الشيخ للأوراد ومتابعته للأخوان في أحوالهم النفسية خلال حلق الذكر الجماعية أو بذكر الورد الراتب .

هذا ، وفي النهاية فإننا نلاحظ أن التحسن الكبير الذي عرفته ماديا وهيكليا وكذا من ناحية الجدية في التسيير قد يؤهلها لتبوء مكانة أرقى في الاضطلاع برسالتها النبيلة من تربية روحية وتعليم وتحفيظ للقرآن الكريم. وتتأرجح حياة الناس اليوم بين عقيد البركة وعلمانية الحياة اليومية لا سيما في الحواضر الكبرى كما يقول كلفورد جرتز الباحث الأمريكي ، مشيرا إلى تداخل الدين كظاهرة مع باقي الأنساق الاجتماعية الأخرى ، ذلك أن الناس اليوم يرون

أن الدين ليس ما هو إلهي فحسب وإنما هو مجرد فكرة ، فالناس لهم تصورات عن الدين ذات أبعاد مكانية – كالمسجد والضريح والزاوية – وزماني – كالزورة و الوعدة .[19]

هذا ، ومن جهة أخرى و مما يشد الإنتباه حقا أن بعض من كان يحسب على المناوئين للتصوف و أهله ومعارضا للزوايا أضحى يستغل هذا الرصيد التاريخي السحيق والمحبة الواسعة التي يحضى بها من قبل قطاع واسع من الناس لإنشاء مدارس لتعليم القرآن الكريم و باقي علوم الدين الإسلامي إلا أنها و إن كنت خطوة محمودة في منطلقاتها فإنها لا تشكل في الواقع سوى مدارس بنيت على أطلال زوايا الغاية من ورائها استغلال ذلك الرصيد الطاهر و استدرار لذلك البريق الآفل من الموروث الإسلامي .

و لقد انتشرت هذه الظاهرة واستفحلت في أغلب ربوع الوطن في كبرى مدنه وقراها فنجدها في كل مدينة حتى ولو تعلق الأمر بمدرسة قرآنية صغيرة فإنك تتفاجأ بمظهر القائم عليها الذي عليه مسحة من السلفية الحديثة أو هو إخواني لا يتفق مع مذهب التصوف وأهله أصلا .

و للأمانة فإنه إن كان مثل هؤلاء قد نجح نسبيا في تحفيظ بعض الشباب للقرآن الكريم فإنه قد قضى على الطريقة التقليدية باللوح والصلصال والدواة والقلم .

قائمة المراجع:

01 – حديث شريف

02 ، عبد المجيد (صغير) التصوف كوعي وممارسة دار النشر والتوزيع الدار البيضاء ص 87

03 – السيد محمد الحسني (الشيرازي)، علم الاجتماع الجزء 01 ، دار العلوم بيروت 1992

04 – (الداهري) صالح ، علم النفس الإرشادي دار وائل للنشر عمان الأردن 2005 ص 17

05– د (عبد الباري) محمد داود ، المنهج التربوي عند الصوفية ، مرجع سابق ص 20

06– (تيودور) كابلو ، البحث الإجتماعي ، ترجمة محمد الجوهري ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1993. ص 35

07–، أبو حامد (الغزالي) تهافت الفلاسفة دار المعارف القاهرة 1980ص 287

08 – (قويسم) الميلود ، التحقيق المتكامل في عادات وتراث العروش الأوائل طبعة خاصة 2006

09 – L'Algérie du demi siècle vue par les autorités locales 1954 p117archive wilaya de - Constantine

10- أبو القاسم (سعد الله) تاريخ الجزائر الثقافي ص 46

11 – جمعية العلماء وعلاقتها بالحركات ، عبد الكريم بو صفصاف دار المداد 2009 ص 243

12 – محمد (ميمون) ،التحفة المرضية في بلاد الجزائر شركة النشر والتوزيع الجزائر 1972 ص58

13 – andre charles l histoire de algerie contemporaine francaise 1979 p 154 presse universitaire paris

14 – جريدة الشروق اليومي الجزائر 2012/12/28

15 – (الكلاباذي)، التعرف لمذهب أهل التصوف ط 2 دار الكتب العربية القاهرة 1980 ص25

16-جورج (لاباسيد) مقدمات في علم الاجتماع دار إفريقيا الشرق الإسكندرية مصر 1982 ، ص 94

17 – د نور الدين (الزاهي) الزاوية والحزب (الاسلام والسياسة في المجتمع المغربي) دار النشر إفريقيا الغرب الإسكندرية، مصر 2003

18 – د النحوي (خليل) الرباط والزوايا في بلاد شنقيط ، مرجع سابق .21 – د عبد الغني (منديب) ،الدين والمجتمع مطبعة إفريقيا الشرق2006 ص 34

19 – derminghum emil le culte des saints dans l islam maghrebin guallimard paris 1954 P11